البداية

الغناء أكثر الأشـكال الفنية قدرة على التأثير فى أفكار الناس وعلى صياغة وجدانهم وأكثرها التصاقا بهم. فلا يوجد إنسـان على ظهر الأرض لم يغن، ولم يدندن بأغنية أو موال ليذهب عن نفسه الوحشة ويتغلب على هموم الدنيا، أو ليعبر عن سعادته وابتهاجه.

وتعبر الأغنية عن قيم المجتمع ومبادئه وأخلاقه، وعن حياة الإنسان منذ ميلاده حتى وفاته، وكانـت المجتمعـات تعتبرها أدوات مهمة لنقـل ثقافاتها وخبراتها من جيـل إلى جيل، وبعد أن تطورت وسـائل الاتصال الجماهيرية زادت أهمية الأغنيـة، واعتمدت عليها أجهزة الإذاعة والتليفزيون بشـكل أساسـي، وتمثل نسـبة كبيرة من وقت الإرسـال فيها، كما ظهرت قنوات متخصصة فى الأرض والفضاء، مسموعة ومرئية وعلى شبكة الإنترنت.

يشـهد التاريخ للمصريين بحبهم للموسـيقى ويسـجل لهم شـدة تعلقهم بفن الغناء، فعندما يغنون، ينشطون، ولا تكاد ساحة أعمالهم تخلو من الغناء أو الزمر والإنشاد.

قال فيلسـوف الإغريق هيرودوت أبو التاريخ: إنه سمع من أغانى مصر أغنيات صارت فيمـا بعد أغنيات شـعبية فى بلاد اليونـان. وعلى جدران المعابد الفرعونية التى أنشـئت للاحتفال بأسـرار العبادات مناظر منقوشـة ومرسـومة بها مشـاهد رمزية وحفلات دينية ومواكب يصحبها موسـيقيون بعضهم يغنى وبعضهم يعزف باسـتخدام آلات متنوعة تتقدم المواكب كهنة موكلون بالقرابين.

«كانت موسـيقانا وقورة والأصوات قوية، فالرجال يغنـون برجولة ثم غزا الفرس مصر بقيادة ملكهم «قمبيز» ومعهم موسيقاهم الأسيوية شديدة التنوع كثيرة الأنات، باعثة للشهوات والملذات، رخـوة، متراخية تدعو للفسـوق وتحض على الرذيلـة، فرفضها المصريون فقـد كانت قوانينهم الخاصـة بالموسـيقى لا تتقبل إلا ما كان من طبيعته أن يتسـامى بالروح ويعودها على المشـاعر النبيلة، وتحذر من الزيادة البالغة والتنوع الشديد فى الأنغام حتى تضمن أنها تصور حالة نفسية لإنسان عاقل متسامح قوى شجاع».

ومـع ما لفن الموسـيق والغناء من أهمية عند العرب لم تشـأ حركة النقـد الفنى فى بلادنا أن تضعه فى اعتبارها، مع أن هذه الحركة ساهمت فى تطوير فنون المسرح والسينما والفن التشكيلى وتركت الغناء بلا منهج، ويعتمد على الانطباعات الخاصة للمتلقى والناقد والتأثيرات التى ظللنا نسمع أغنياتنا من خلالها.

إن موسيقانا المصرية التى رفعها أفلاطون فوق موسيقى اليونانيين واعتبرها النموذج الأفضل والأكثر اكتمالا للموسيقى تحتاج إلى اهتمام كبير لنصونها من هوجة أغانى الإيقاعات الراقصة المكررة وسابقة التجهيز والنغمات الغربية والأمريكية التى اقتحمت حياتنا تم فرضها من مختلف وسائل الإعلام لذا يتحتم علينا تدعيم موسيقانا وحمايتها من الخطر المتربص بنا وخطر غول العولمة. ومن الحتمى والمفيد دراسة الغناء العربى فى مظاهره المتنوعة وأساليبه المتعددة وأنواعه المتباينة وتاريخه الخاص، من منطلق أن كل لون هو حياة خاصة ويعبر عن ظروفه ومجتمعه ، وكل فن له ثراؤه وتواصله مع متلقيه، فإن طبيعة المجتمع ومميزاته الفكرية والثقافية هى السمات التى تنطبع على الأعمال الغنائية والموسيقية المنتمية إلى هذا العصر والأسلوب الذى يتبعه كل ملحن أو موسيقى فى عمله.

وقد اختلف العلماء على تعريف كلمة الأسلوب، لكنها هى القالب والأفكار الذى تميزه الإيقاعات والألحان ومقاماتها والمعالجة العلمية لأعماله، وتعتبر جماليات الغناء العربى حدا فاصلا فى انتماء الملحن لأسلوب بعينه، أو إلى مدرسة ومذهب فتحدد درجة التعامل معها ملامح هذا الأسلوب إلى حد بعيد. كما أن التطريب لا يعد مذهبا فى التلحين ولا هو لون ولا هو أسلوب، إنه أثر نفسى يصوغه الغناء فى كل ألوانه وأشكاله مهما اختلفت قوالبه ويؤثر على المتلقى كل حسب ثقافته وحسب عمره والجيل الذى ينتمى إليه.. حسب بيئته أيضا.. ومن الطرب ما هو نفسى فى أعمال روحانية بحتة، ومنه ومعه ما هو غريزى من أعمال تستخدم فى اللهو والمتعة الحسية.

أما الأسلوب فهو ملامح روح العمل الفنى وهو ما يراه «باخ»، فالملامح فى رأيه هى التى تميز بين الأفريقى عن الأسيوى، وهى غير ملامح الروح التى قد تظهر فى عمل أبدعه هذا أو ذلك.

يرى البعض أن الأسلوب هو الوحدة الواضحة التى تعلم مميزات الأعمال الفنية أو إنتاج الفنانين المنتمين إلى عصر واحد وبيئة واحدة أو بيئات متقاربة ويقال عن أسلوب الموسيقى فى عصر بعينه إنه اللغة الموسيقية لهذا العصر.

ولم يكن الأديب أو الفنان العربى فى العصر الحديث ببعيد عن الأدب والفن الغربى بل إن تأثره به قد فاق تأثره بالآداب والفنون العربية القديمة منذ أن اتصل العرب بالعالم الغربى عن طريق المبشرين أو المحتلين ورجال المال والتجارة الذين وفدوا إلى بلاد العرب، أو بواسطة البعثات العلمية التى أرسلتها البلاد العربية إلى الغرب أو بواسطة أبناء العرب الذين هاجروا إلى هناك، ومما يجعلنا نلاحظ انتشار المذاهب أو الأساليب المتبعة فى الأدب الغربى فى أدبنا العربى، أن كل حركات التجديد التى نشأت فى الأدب العربى المعاصر استمدت وحيها فى

الغالـب من الآداب الأجنبيـة وتغلغلت اتجاهات الأدب الغربى ومذاهبـه فى الحضارة العربية المعاصرة بحيث أصبحت جزءا منها لا يقل أهمية من تكوينها عن العنصر الأدبى القديم.

لقد أصبحت مذاهب الأدب الغربى موحيا رئيسيا لأدبنا المعاصر ويرى الدكتور محمد مندور أن ذلك توجه لا ضير منه بل لعل فيه كل الخير إذ إنه سـوف يدخل أدبنا فى تيار الأدب العالمى دون أن يفقدنا خصائصنا الروحية المميزة ودون أن يفقد أدبنا طابعه الخاص باعتباره مرآة لحياتنا العامة والخاصة بل ودون أن ينفصل عن لغتنا التى ستظل مادته الأولية التى ينحت منها صوره وأشـكاله والتى لا مفر لنـا من أن تحتفظ بنصاعتها وأن نزيد مـن قدرتها على التعبير والإبحار وذلك لأن المذاهب والاتجاهات الأدبية لا تمحو خصائص الشـعوب وخصائص اللغات ، ولكنها توضح الأصول الفنية والأهداف الإنسانية والاجتماعية للأدب وهى أصول وأهداف يمكن أن تمحو الخصائص المميزة لتلك الحيوات ، فإذا قال التفكير الأوربى الحديث مثلا أن من واجب الأدب أن يعالج مشاكل المجتمع ، فإن مثل هذا المبدأ يمكن أن ينطبق على المجتمع المصرى أو العراقى كما ينطق على المجتمع الفرنسـى أو الأمريكى مع احتفاظ كل مجتمع بخصائصه ومشاكله الخاصة ، ومع ذلك تعتبر كل هذه الآداب التى تصدر عن هذا المبدأ أدبا عالميا موحد الاتجاه والأصول.

ومما لا شـك فيه أن ما يراه الناقد الكبير الدكتور محمد مندور لا يصلح لأن يطبق على أدبنا العربى فقط، إنما على سـائر الفنون الناطقة بلغة الضاد من موسيقى وغناء وسينما ومسرح وفنون تشـكيلية ، ويمكن أن تتخذ الفكرة كدليل لتحديد أسـاليب وأنواع التلحين العربى وتطبقه على مـا وصل إلينا من ألحان ابتداء من أوائل القرن العشـرين ، وعلـى وجه التحديد منذ عام ١٩٠٤ عندما ظهر الحاكى أو الفونوغراف من مصر وانتشـر فى أغلب البيوت المصرية وسجلت شركات الأسطوانات أعمالا غنائية كثيرة لمطربى العصر.

ويعـرف العالم أسمـاء كثيرة لمذاهب موسـيقية عالمية. فبعد عصر الباروك ظهرت الموسـيقى الكلاسـيكية ثم الرومانسـية وظهرت فى القرن العشـرين أنواع أخرى هى الموضوعية والتعبيرية والكلاسيكية الحديثة والدوريكافونية والمدرسة القومية والموسيقى الإليكترونية.

وعلـى رغـم أن الأغنية فى الغـرب لا تحظى بنفس أوج أهميتها عنـد العرب ، حيث يوجد إلى جوارها قوالب كثيرة للموسـيقى الكلاسـيكية هناك ، بينما تكاد تكون فى بلادنا هى الشكل الأساسى والمحورى للموسيقا. إلا إنها قد اتخذت هناك أشكالا متباينة وتميزت بتقاسيم ومسميات محـددة، فأغنيـة البلوز، وهيب هـوب Rap And Rab ، وأغنيات الروك وتنقسـم بدورها إلى أغنيـات Adult وAlternative وPink K أمـا أغنيات Trance Teckno فهى من أنواع الأغنية لا يكثر فيه الحديث .

فى السينما يقسم النقاد أنواع الأفلام إلى روائية وتسجيلية ويطلقون على الأخيرة سينما الواقع «أو السينما الروائية» فهى ألوان ومذاهب فمنها الأفلام الرومانسية والإثارة وأفلام الموجة الحديثة، ومنها ما يرتبط اسمه بموضوع الفيلم الكوميدى «تراجيدى» و«ميلودرامى» وغيرها.

ويعرف العالم أربعة أنواع من المسرح تتخذ أسماء حسب الناقل الأساسى وأداء الممثل أو الغناء أو الرقص أو الإيماء التعبيرى.

فالمسرح التمثيلى أو الناطق يشمل مسرح الكباريه والمسرح الاستعراضى ومسرح الطفل والمسرح السياسى والمسرح التجريبى والمسرح الارتجالى ويشمل المسرح الموسيقى الأوبرا بأنواعها مثل الكوميدية والغنائية. وأيضا الأوبريت، ثم المسرح الراقص ومسرح العرائس الذى لا يقوم الإنسان الممثل بالدور الرئيسى فيه.

أما أنواع الفن التشكيلى فهى كثيرة منها التأثيرية والوحشية والتكعيبية والمستقبلية والتعبيرية والدارا والسريالية والتجريدية التعبيرية والتجريدية التلقائية والتجريدية الحركية والتجريدية الطبيعية والتجريدية الهندسية وتجريدية خداع البصر والسوبروماتية والتجريدية الإيجازية والتجريدية العضوية والتجريدية الأبجدية والواقعية الاجتماعية وفن العامة والتصويرية والتطبيعية.

وقد قسم الأوربيون الشعر منذ عصر الإغريق إلى ثلاثة فنون هى شعر الملاحم والشعر التمثيلى، والشعر الغنائى بينما انقسم الأدب عند العرب إلى نثر فنى مثل الرسائل والخطابه والمقامات، وشعر لا يعرف العرب منه إلا الشعر الغنائى، وفرّق الغرب فى أشعارهم بين المذهب الكلاسيكى الذى أدى إلى تفوق الشعر الغنائى. والمذهب الرومانسى الذى أنتج الشعر الغنائى أما شعر الملاحم الذى أفرز للإنسانية «الإلياذة والأوديسا» فقد انضم فى العصر الحديث إلى الآداب الشعبية.

ويلاحظ الدكتور محمد مندور فى كتابه «الأدب ومذاهبه» أن الأدب العربى المعاصر لم يتأثر بالآداب الغربية المعاصرة فحسب، بل تأثر أيضاً بالآداب الغربية القديمة، ربما يفسر ما نراه من هذا الأدب العربى المعاصر من محاولات لنظم الملاحم أو المسرحيات الشعرية، ومن تقليد لمذاهب الغرب القديمة كالكلاسيكية وغيرها، بدليل ما نراه من اختيار شعرائنا للموضوعات التاريخية والأسطورية لمسرحياتهم الشعرية وانتقاء شخصياتها من بين الملوك والأمراء وأعلام التاريخ بينما تطورت التراجيديا القديمة إلى الدراما الحديثة التى تختار موضوعاتها من مشاكل الحياة أو المجتمع المعاصر وتختار شخصياتها من عامة الشعب. ومن هذه الحقائق ما يدعونا إلى ضرورة تفهم مذاهب الأدب الكلاسيكى حتى يومنا هذا.

لقد ظهرت التخطيطات العامة لمذاهب الآداب والفنون عند الغربيين فى العصور الحديثة منذ عصر النهضة والبعث العلمى بعد أن خرجت الإنسانية من ظلام القرون الوسطى بينما ظلت مصر

والعـالم العربى غارقين فى الظـلام حتى ظهرت حركة البعث والنهوض متأخرة عن زميلتها فى الغرب بحوالى ٤ قرون ثم بدأت المحاولات لتعويض ما فات وملاحقة ركب الإنسانية العام.

لقد أوجدت إرادة الأدباء والفنانين مذاهب الآداب والفنون وإن سبق إليها الأدباء باعتبار أن الأدب وسيلة للتعبير عن حالات نفسية أو أوضاع اجتماعية تتغير فيتغير تبعا لها الآداب ومذاهبها.

ويظهر ذلك إلى أى حد نستطيع أن نستعيد بإرادتنا تلك المذاهب، وقد تم ذلك بالفعل فى كل ألوان الإبداع العربى من فنون باستثناء فن التلحين وقد كان يمثل الموسيقى العربية إلى أن بدأت إرهاصات التأليف للموسـيقى البحته وظهور الموسـيقى المصرية فى منتصف القرن العشرين ومع ذلك فقد ظلت لفن التلحين السيادة فى مجال الموسيقى فنحن شعوب شفهية تعشق الكلمة وتبدع بها فى أشعارها وأمثالها وكل ألوان الأدب والغناء أيضا.

والفن صياغة فنية لتجربة بشرية أو إحساس إنسانى، وهو نقد للحياة ومن المعروف أن غايات الفـن تدخل ضمن تمييز مذاهبـه المختلفة فمذهب الفن للفن هو الذى يتخذ للفن غاية خلق القيم الجمالية، والرومانسية تتخذ للفن غاية التعبير عن الذات الفردية، أما الواقعية فترمى إلى إظهار ما فى الحياة من قبح وشر.

نريد أن نحدد مذاهب للتلحين واعية مسندة إلى أسس فلسفية ونقدية واضحة كما حدث للفنون والآداب الغربيـة والعربية لكنها مذاهب لا تحددها غايات الفن ووظائفه بل تعتد إلى رؤية الملحن للكلمات التى يتعرض لتلحينها وأسـلوبه فى التعبير عنها وهل التزم بما تحتويه من معان أو أنه انسـاق وراء الابهار بجماليات الغناء العربى بصرف النظـر عن قدرة هذه الكلمات على احتمالها أو لا، أو أنه جرفته القدرات الصوتية لمن يلحن له فاختار أن يسـتعرض العضلات ليصبح الغناء للغناء ليس إلا، وتجاهل دور هذا الفن الجماهيرى العظيم كوسيلة للتعبير عن كل المواقف الحياتية بحلوها ومرها، وأن الغناء يمكن أن يكون فى السلام ورده فى الحرب حد السيف.

إنه عرض تحليلى لصناعة اللحن العربى، أنواعه ومذاهبه وأساليبه الفنية، والصناعية للكلمات والتعبير عنها فى براعة احتاجت إلماما بأصول وقواعد التلحين وبأسـلوب يعكس رؤية كل فنان ولأن الأسلوب هو الرجل كما يعلمنا أستاذ الصحافة الدكتور عبد اللطيف حمزة، فلزم أن نعرض هنـا للرجال الذين لحنوا للعرب مع قراءة فى أعمالهم لنحدد المذاهب والأسـاليب التى اتبعوها فى إبداعاتهم اللحنية .

والأسـاليب هنا لا يحددها التحليل الأدبى للكلمات المغناة، ولا التحليل الأكاديمى لأسـلوب اللحن من حيث عدد «الموازير» والمقامات الموسـيقية المسـتخدمة وأسمـاء الإيقاعات أيضا والمدة الزمنيـة التى اسـتغرقها اللحن، إنما هو تحليل لأسـلوب التعبير عن الكلمات والمسـاحة التى

استخدمها الملحن من جماليات الغناء العربى القديم والحديث، فإذا كانت فى تراثنا الغنائى أغانٍ حلوة.. وأغانٍ مرة.. فربما ساعد هذا التحليل فى تفسير لماذا كانت الأغانى الحلوة.. حلوة.. ولماذا جاءت المرة .. مرة .

محمد قابيل

□□□